مصر قبل ٤٥ قرناً تحمل :

لواء الأدب القديم

حكم الفيلسوف « بتاح حتب » ونصائحه

[لاحمد يوسف : بالمتحف المصري]

قد يجد الدارس لتاريخ مصر القديم سجلاً حافلاً بالعظمة ، طوت صفحاته السنون ، وكاد الاهمال والنسيان يضربان عنه صفحاً ، والواقع أن جميع اسباب الثقافة والعلم كان قد ضرب فيها أجدادنا بسهم وافر ، وان المصريين الاقدمين لم يخلفوا لنا أحجاراً نشاهدها . وقبوراً تسرح الطرف في أبنيتها ، معجبين ، أو مستغربين انهم صرفوا همهم وبذلوا كل تلك العناية في اقامتها . فهم ، الى جانب ما تركوا لنا فيها من فن نابض ناطق ، بهر الدنيا بهاؤه ، وأعجزت صنعته ، قدموا الينا وثائق من ثقافتهم وعلمهم تشهد بالفخر لهم ، وتقيم الدليل الناصع على مدنيتهم العالية

وهذا الادب ، الذي هو بضاعة الذهن العالية ، وخير ما تفخر به حياة هذا الجيل ، كان لهم فيه المجال الواسع اذ سبقوا هذا العالم بأسره ، الحديث والقديم ، الى غرس بذوره وقطف ثماره الناضجة

لم يطرقوا سبيل الأدب من ناحية واحدة ، بل مارسوه كتابة وشعراً وقصصاً ، وتياروا في أسلوبه كما نتبارى اليوم ، وكان منهم الفلاسفة ، والكتّاب النوابغ ، وكان منهم الشعراء والناثرون وكان منهم الروائيون أو القصصيون ، وقد تفننوا في أساليب فن الادب وابتكروا ، فجعلونا نقرأ لهم ما يفيض بعواطفهم ، وجعلونا نتبع أعيننا وأذهاننا باليديع من أفكارهم وآرائهم

والمجال متسع لاثبات كل ذلك . نرى ان نبدأه اليوم بهذه الحكم العالية لأحد فلاسفتهم وكبار كتابهم ، ويدعى «بتاح حتب» . كان وزيراً للملك «إمني» ، من الاسرة الخامسة ، الذي كان حاكماً في نحو سنة ٢٦٧٥ قبل الميلاد . أي ان العبارات التي سنعرضها يرجع تاريخها الى حوالي ٤٦٠٠ عام قبل وقتنا هذا . ولا شك انها أقدم ما عرف من آثار الأدب في الوجود . ولهذا الوزير مقبرة كبيرة بديعة النقوش ولا زال تشاهد في جملة ما يشاهد من آثار سقارة . وكانت هذه الحكم التي دوّنها ذلك الفيلسوف مما يدرس في المدارس المصرية القديمة ، كأنموذج للأدب الناضج ، يتثقف به النشء ، وظلت الاجيال تتناقلها للانتفاع بمعانيها وأسلوبها حتى عهد الاسرة الثامنة عشرة

وقد عثر على نصائح « بتاح حوتب » هذه في أوراق بردية كثيرة ، أتمها عبارة تلك المعروفة ببردية پريس — نسبة الى صاحبها — وهي محفوظة بباريس

وهاك نمن هذه النصائح ، ننقلها اليك مترجمةً حرفيًّا من دون أي تعديل . ولا ندعك الى أن تضعها والادب الحديث في كفتي ميزان ، لتقابل بينهما . بل يجب ان لا تنسى ملاحظة قدم عهد ذلك الزمن الذي دوّنها . ومع ذلك فاني على يقين من أنك ، أيها القارىء العزيز ، ستعجب بها كل الاعجاب ، وستقدرها قدرها اذ ترى انها لا تقلّ عما في يديك من الحكم اليوم . بل إنك ستلحظ ان كثيراً من المعاني التي تحويها قد تناولتها الايام عن ذلك العهد الغابر ، وان المصريين القدماء قد سبقوا الى معناها ، أو وضعوا بأيديهم وافكارهم أساس ثقافة العالم

والآن فاسمع ماذا كتب ذلك الفيلسوف . وسننقل اليك ما نتخيّره من العبارات لكيلا نطيل عليك

يتحدث الفيلسوف «بتاح حتب» بهذا الاسلوب :

يقول «بتاح حتب» لجلالة الملك «إسّي» : إن الشيخوخة أتت ، والهرم قد حلّ . وقد وهنت المفاصل ، وفاجأتنا حالة الكبر بالظهور ، وخذلت القوى ، واستبد بنا الضعف . وأصبح الفم صامتاً لا ينطق ، والعينان قاصرتين ، والاذنان صمّاوين . وغدا القلب كثير النسيان ، لا يذكر حتى أمسه . والعظم مرهقاً بالشيخوخة . والأنف عاملاً لا يستنشق . (كان الأنف معتبراً عندهم كأساس الحياة البشرية) . صار في صورة الضعف الوقوف أو الجلوس . القلب الخير شرًّا . وانعدمت حاسة الذوق . ولم يؤد الكبر للانسان أكثر من أن جعله ضعيفاً في جميع احواله

« إذن فدع الخادم الواقف هناك — يقصد نفسه ، وهو يخاطب الملك ، وهذا تعبير متواضع يدلّ على الادب الجم — يلتمس ان يجعل نفسه شخصية في تلك السن الكبيرة . وان يجعل ولده يجلس في مكانه ، حتى يتهيأ للنصيحة ، وهو في اذن اولئك الذين يسمعون ، وفي ذهن اولئك الذين غبروا قبلنا ، اولئك الذين خدموا السلف في الزمن الماضي — والمعنى الظاهر انهُ يتمنى ان يكون ولده نافعاً للملك منفعة من مضوا لملوكهم . اما المعنى الخفي فهو فكرة حكيمة متأدبة دار حولها بشكل يشهد له بالقدرة والمهارة في اعداد الناس لقبول نصائحه بطريق مؤدب غير مباشر . وهذا هو غاية الحكمة في مخاطبة الملوك ، او ما اصطلح عليه بأدب الملوك — هل يفعل اولئك لك على مثل ما فعلوا لغيرك حتى يزول التنازع بين الناس ، ويصبح شاطئا النهر (النيل) في خدمتك

« قال جلالته : نعم . النصحه (أدّبه) في محاورات . (وهنا جملة مفقودة من الاصل الذي نقل عنهُ) حتى يكون قدوة لاولاد العظماء . وليت الطاعة تلازمه ، ويستوعب كل رأي سديد تطرحه عليه . فليس هناك من ولد يمكنه الفهم من نفسه »

وبدأ الفيلسوف نصائحه فقال : « يمكنك ان تتعلم من كل انسان . لا تعتزّ بعلمك . ولا تعتقد بأنك عالم . بل خذ النصح من الجاهل كما تأخذه من المتعلم . فان حدود العلم بعيدة المنال . وليس من احد حاز غاية العلم . والعلم الصحيح (التام) اعز من الحجر الكريم الاخضر . وهل

انت تجده مع الخادمات فوق احجار الفواخين — اي افقر الفقيرات — ؟ »

﴿ الآداب ازاء الخطيب ﴾ : « ان وجدت خطيباً لبقاً وأحسن منك براعة ، فثنِ ذراعك له واحنِ ظهرك (علامة الاحترام عند المصريين القدماء) . وان كان يتحدث عن جهل فلا تحجم عن ان تردّه الى الصواب ، حتى يقول الرجال له « انت جاهل »

« اما اذا كان يوازيك علماً ، وأخطأ في الحديث ، فاظهر نفسك بالصمت ، حتى تكون افضل منهُ . ولن يحمد هو من السامعين ، بل تعد انت من زمرة العظماء . وان كان وضيعاً ، ولا يوازيك علماً ، فلا تحمق عليه اذ تعلم انه حقير . (وهنا جملة مفقودة) . بل غض عنه الطرف ، فيعاقب نفسه بنفسه . ان من الخطل ان يؤلم المرء حقيراً . (وهنا جملة مفقودة) . قد تقتله بعقاب العظماء » — ربما يقصد من ذلك ان يلزم الصمت ويتجاهله كما يفعل العظماء —

﴿ قد تفوز بالخير في حياتك باعتمادك على الحق والصدق ﴾ اذا كنت قائد قوم ، وكان لك الامر فيهم ، فاسع وراء العمل الطيب حتى لا تبقى هناك خطيئة في اخلاقك . الصدق جميل وجزاؤه دائم . لم تتبدل قيمة الصدق يوماً منذ خلقه خالقه (منذ الخليقة) — وفي عقيدة القدماء ان الاله رع هو الذي جلب الصدق الى الدنيا — على ان من ينكر شريعته — اي الصدق — يحق عليه العقاب . انهُ الطريق المستقيم امام ذلك الذي لا يعرف شيئاً — اي الجاهل — والعمل السيء لم تصل للسماء بضاعته — يقصد انهُ لم ينجح مطلقاً — حقاً ان السيئات قد تكسب الجاه . ولكن الجاه يبقى بقوة الايمان . وقد يقول الرجل الصادق «هذا ملك والدي» — ومعنى هذه الترجمة الحرفية هو ان تأديب والده له من طريق الصدق هو خير ما ورثه له »

﴿ كن اميناً في توزيع الرسائل ﴾ اذا كنت احد من يعتمد عليهم عظيم من العظماء ليوفدهم الى آخر ، فأدِّ الوفادة كما يجب . بلغ الرسالة كما يشير عليك . لا تكتم خبر ما يقال لك . وحاذر ان تقع في النسيان . تمسك بالصدق ولا تعدُ حدوده . حتى وان كنت مضطرًّا ألاّ تقص شيئاً مفرحاً . حاذر كذلك من الكلام الذي يسقط بقدر الرجل العظيم ، من طريق الاسلوب الدارج . وان اصبح العظيم خاملاً فهذا ما تمجه النفس — والمعنى من كل هذا أنك لا يجب أن تصوغ تعبيراً وضيعاً محل اللغة التي تخيرها سيدك . فانهُ يكون مخزياً للرجل العظيم اذا كانت لغته هراء —»

وهنا عبارة لم يسع لها الناسخ القديم عنواناً . يقول فيها « بتاح حتب » :

« اذا أنت حرثت الارض وما حقلك وأغدق الله عليك بذلك ، فلا تشبع فلك وحدك دون ذوي قربائك »

﴿ لا تحقر اولئك الذين ارتفعوا ﴾ « اذا كنت شخصاً وضيعاً ، وكنت في رعاية رجل من أهل النعمة ، يؤدي كما يجب فروض الله ، فتناس كل شيء عن سابق شأنه . لا ترفع قلبك دونه — اي لا تتعاظم عليه — على حساب ما تعلم عنهُ في الماضي . بل احترمه من أجل ما صار اليه .

لان الثروة لا تأتي من نفسها — اي جزافاً — (وهنا جملة مفقودة) ولكن الله هو الذي يهب النعمة . (وهنا جملة مفقودة ايضاً) »

﴿ امنح نفسك فرصة للراحة ﴾ « إتبع قلبك — اي سر نفسك — طالما انت تعيش . ولا تعمل اكثر مما يجب . لا تختصر الوقت الذي تمنحهُ لقلبك فان من البغيض للنفس ان يختصر الوقت الذي لها »

﴿ واجبك نحو ولدك ﴾ « ان كنت ذا مكانة ، وكان لك زوجة . وانجبت لك ولداً يرضي إلههُ بعمل الحق — اي ولداً صالحاً — ويحب على خلقك . ويصغي إلى نصائحك . وكانت اعماله تصلح بيتك . وكان يرعى كما يجب مالك . فزوده منك بكل ما هو خير

« انهُ ولدك الذي وهبتهُ روحك . فلا تحجب عنهُ قلبك

« اما ان كان يسيء . ويتطاول على آرائك . ولا يتبع نصائحك . وكانت اعماله في بيتك غير صالحة . ويعارض كل ما تقوله . (وهنا جملة مفقودة) . فاقصه اذن عنك . لانهُ ليس ولدك — يقصد انهُ عاق — انهُ لم يولد لاجلك (وهنا جملة مفقودة ايضاً) »

﴿ تحذير من النساء ﴾ « ان كنت افرغت صداقتك في بيت كان لك الحرية في دخوله ، اذ كنت فيهِ سيداً او شقيقاً او صديقاً ، او اي صفة اخرى يسرك ان تكونها ، فاحذر ان تقرب النساء — ويقصد مغازلة من ليس له فيهن حق — فان المكان الذي هنَّ بهِ ليس صالحاً

« قد تضيع بسببهنَّ الالوف . وينجذب الرجال ببريقهنَّ الخلاب ، وقد جهلوا ان ذلك البريق ما يلبث ان يصبح كالحجارة المحروقة — اي انها نشوة قصيرة الامد ، ما تلبث ان تزول — شيء تافه . ضئيل . كالحلم . تأتي بعده الحسرة »

﴿ تحذير من الحقد ﴾ « ان رغبت ان يكون خلقك حميداً ، وان تجرد نفسك من جميع المساوىء ، فاحذر من الحقد . فهو مرض وبيء لا يشفى . ان الاخلاص يستحيل برجوده . انهُ يجعل الصديق المحبوب بغيضاً . ويغير نقة الرئيس في رجله . ويقبح حقيقة الوالد والوالدة ، واشقاء الوالدة بالمثل — اي الاخوال — ويطلق الرجل من زوجه . انهُ حزمة من جميع انواع المساوىء . وحقيبة محلوءة من كل شيء بغيض . قد يطول بقاؤه من كان خلقه كريماً ، ومن يسير بحسبما يأمره الخلق الكريم . انهُ يربح من ذلك الغنى . اما الحقود فيفقد كل شيء

﴿ ميزة الزواج ﴾ ان كنت رجلاً كاملاً فأسس لك بيتاً ، واحبب زوجتك فيهِ . اشبعها واكسها . واعلم ان العطر شفاء مفاصلها — اي إرضها بالعطر — سرٌّ قلبها طالما تعيش معك . انها الحقل الصالح لصاحبها — وهذا يوافق ما جاء في الآية الشريفة : « نساؤكم حرثٌ لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم »